

العبودية والتحرر في البرازيل خلال القرنين السابع عشر والتاسع عشر

Slavery and Liberation in Brazil during the 17th and 19th Centuries

م.د أكرم عباس عمران*، المديرية العامة لتربية بابل،

Email :dr.akramomran77@gmail.com

تاريخ الارسال: 2026-01-05 تاريخ القبول: 2026-03-11 تاريخ النشر: 2026-03-11

Abstract**ملخص**

This study examines slavery in Brazil during the seventeenth and nineteenth centuries as one of the fundamental pillars of both the colonial and imperial systems. It analyzes the evolution of enslavement practices, the social and economic conditions of enslaved people, and the individual and collective forms of resistance that contributed to weakening the slave system. The study also highlights the gradual paths toward emancipation, particularly the impact of economic, intellectual, and legal transformations in the nineteenth century. It seeks to emphasize the dialectical relationship between slavery and freedom and to understand the specificity of the Brazilian experience in comparison with other slave societies in the Atlantic world.

Keywords: Slavery, Emancipation, Brazil, Atlantic Slavery, Resistance, Manumission, Seventeenth Century, Nineteenth Century.

يتناول هذا البحث ظاهرة العبودية في البرازيل خلال القرنين السابع عشر والتاسع عشر، بوصفها إحدى الركائز الأساسية للنظامين الاستعماري والإمبراطوري. ويحلّل تطور أنماط الاستعباد، وأوضاع العبيد الاجتماعية والاقتصادية، إلى جانب أشكال المقاومة الفردية والجماعية التي أسهمت في إضعاف هذا النظام. كما يسلّط الضوء على مسارات التحرر التدريجي، ولا سيما أثر التحولات الاقتصادية والفكرية والتشريعية في القرن التاسع عشر. ويسعى البحث إلى إبراز العلاقة الجدلية بين العبودية والتحرر، وفهم خصوصية التجربة البرازيلية مقارنة بغيرها من مجتمعات العبودية في العالم الأطلسي.

الكلمات المفتاحية: العبودية، التحرر، البرازيل، الرّق الأطلسي، المقاومة، العتق، القرن السابع عشر، القرن التاسع عشر.

المقدمة

يتناول هذا البحث ظاهرة العبودية في البرازيل خلال القرنين السابع عشر والتاسع عشر، بوصفها إحدى الركائز الأساسية للنظامين الاستعماري والإمبراطوري. ويحلّل تطور أنماط الاستعباد، وأوضاع العبيد الاجتماعية والاقتصادية، إلى جانب أشكال المقاومة الفردية والجماعية التي أسهمت في إضعاف هذا النظام. كما يسلّط الضوء على مسارات التحرر التدريجي، ولا سيما أثر التحولات الاقتصادية والفكرية والتشريعية في القرن التاسع عشر. ويسعى البحث إلى إبراز العلاقة الجدلية بين العبودية والتحرر، وفهم خصوصية التجربة البرازيلية مقارنة بغيرها من مجتمعات العبودية في العالم الأطلسي.

تتمحور إشكالية البحث حول تحليل العلاقة الجدلية بين نظام العبودية ومسارات التحرر في البرازيل، وكيفية تحول الرق من ركيزة اقتصادية استعمارية إلى بنية اجتماعية معقدة (1p). وتطرح التساؤل الجوهرى حول الأسباب الكامنة وراء عدم تكرار نماذج المقاومة الكبرى مثل "بالماريس" رغم اتساع تجارة الرقيق عبر الأطلسي وازدهار قطاع التعدين (10, 2pp). كما تبحث في دور سياسات العتق التدريجي وظهور فئة "الملونين الأحرار" كأداة لتخفيف التوترات الاجتماعية وضمان استدامة النظام العبودي بدلاً من تقويضه (13p). وتسعى الدراسة إلى فهم مدى تأثير التحولات الاقتصادية والتشريعية في القرن التاسع عشر على تشكيل الهوية الوطنية البرازيلية (17p).

المطلب الأول: المقاومة في بالماريس

تُعد حرب بالماريس واحدة من أبرز فصول المقاومة ضد العبودية في تاريخ العالم الجديد، وبينما تختلف تقديرات الباحثين المعاصرين والمؤرخين حول حجم سكانها (تراوحت الأرقام بين ستو آلاف وثلاثين ألف نسمة) يبقى من المؤكد أن مجتمعات بالماريس، بفضل مساحتها الجغرافية الواسعة والعدد الكبير من العبيد الفارين الذين ضمتهم، قد شكلت أكبر مجتمع للعبيد المحررين أو الهاربين، في تاريخ أمريكا البرتغالية، وعلى الرغم من نشأة بالماريس تعود إلى أوائل القرن السابع عشر، فإن صعودها كمركز مؤثر للعبيد الفارين، لم

يتحقق بشكل فعلي إلا خلال فترة الغزو الهولندي لمقاطعة برنامبوكو، إذ تدفقت أعداد كبيرة من العبيد الفارين بحثاً عن الحرية للمزيد عن بالماراس ينظر في: Décio Freitas' Palmares, a guerra dos escravos. Rio de Janeiro: Graal, 1990 (1st ed. 1971) and República de Palmares. Pesquisa e comentários em documentos históricos do século XVII.

Maceió: Editora da Ufal, 2004(

استفاد العبيد الفارين من الأوضاع المضطربة التي رافقت الفوضى العسكرية لهربوا نحو جنوب ولاية كابيتانيا، وقد تمكنت الجماعات المتمردة التي تشكلت في تلك الفترة من الصمود أمام العديد من الحملات العسكرية التي شنتها شركة الهند الغربية، وعقب طرد الهولنديين، استطاعت تلك الجماعات من التصدي لهجمات شنتها قوات لوسو- برازيلية (قوات لوسو- برازيلية: تشكيلات عسكرية مشتركة ضمت عناصر برتغالية ومحلية في البرازيل خلال الحقبة الاستعمارية، ولا سيما في القرنين السابع عشر والثامن عشر، وأسهمت في الدفاع عن المستعمرات البرتغالية، ومواجهة القوى الأوروبية المنافسة، وقمع التمردات الداخلية، وشكلت نواة مبكرة للتنظيم العسكري الذي سبق قيام الجيش البرازيلي بعد الاستقلال. للمزيد، يُنظر إلى (Jean Delumeau & Frank Lestringant (dir.), PUF, 2000):

ومع تزايد التهديد الذي كانت تمثله تلك الجماعات للنظام الاستعماري البرتغالي في الأمريكيتين، اعتبرتها السلطات الهولندية التي تتولى إدارة المستعمرات سياسياً وعسكرياً وأدارياً خلال سبعينيات وثمانينيات القرن السابع عشر (هولنديين ملونين)، مشيرة بذلك إلى الأفارقة والمولّدون (المولّدون (Mulattos): مصطلح تاريخي استخدم في المجتمعات الاستعمارية، ولا سيما في البرازيل وأمريكا اللاتينية، للإشارة إلى الأشخاص ذوي الأصل المختلط الإفريقي-الأوروبي. شكّل المولّدون فئة اجتماعية وسيطة بين البيض والسود، وتمتعوا أحياناً بامتيازات محدودة مقارنةً بالعبيد الأفارقة، مثل العمل في المهن الحضرية أو الخدمة في الميليشيات، مع استمرار خضوعهم لأشكال متعددة من التمييز القانوني والاجتماعي. للمزيد ينظر في: (Paul E. Lovejoy, 2011, pp. 98–101)

وأحفادهم في بالماريس، ولم يتحقق النصر العسكري على تلك الجماعات إلا في المدة (1690-1699)، وبعد قرن كامل من النضال ضد أثنتين من أبرز القوى الاستعمارية الأوروبية في ذلك العصر، وقبل ثورة سانت دومينغ (1791-1804) والانتفاضات الكبرى المناهضة للعبودية

في منطقة الكاريبي البريطانية خلال الثلث الأول من القرن التاسع عشر، كانت قصة مقاومة بالمريس تضاهي حرب المارون الأولى في جامايكا (1655-1739) وحرب ساراماكا في سورينام (1685-1762)، ومع ذلك فقد نجح الفارّون في الحربين الأخيرتين من دحر القوات القمعية، الأمر الذي أجبر السلطات وملاك العبيد على الاعتراف بحريتهم. (Coleção de Leis do Império do Brasil, Imprensa Nacional, Rio de Janeiro, 1826–1850 leis sobre o tráfico), várias página)

تُعد هزيمة مملكة المارون في بالمريس لغزاً تاريخياً، أثار تساؤلات الباحثين المعنيين بتاريخ العبودية في البرازيل لفترة طويلة. ولماذا لم تتكرر تجربة مجتمعات مقاومة مشابهة لبالمريس في مسار تاريخ البرازيل؟ هذه القضية تُعد ذات أهمية خاصة، إذ شهد القرن الثامن عشر زيادة في نشاط المارون بالتزامن مع اتساع تجارة الرقيق عبر الأطلسي وظهور مراكز التعدين في المناطق الداخلية، وعلى امتداد شمال وجنوب البرازيل، إذ تنوعت أشكال المقاومة التي قادها العبيد الفارين، سواء من حيث حجم الجماعات أو مدد بقائها، كما تجلت البرازيل في أوائل القرن التاسع عشر كمسرح لنمط آخر من المقاومة الجماعية، استلهمت تقاليد طويلة عرفتها جزر الكاريبي البريطانية، مثل سلسلة الانتفاضات الإفريقية التي اهتزت لها منطقة ركونكافو في باهيا خلال الأعوام (1807-1835). (حول مقاومة العبيد في منطقة الكاريبي الإنجليزية والفرنسية وفي سورينام ينظر في: Patterson, Orlando. "Slavery and slave revolts: a socio-historical analysis of the First Maroon War, 1655-1740". Social and Economic Studies, vol. 19, n° 3, set. 1970; Craton, Michael. Testing the chains. Resistance to slavery in the British West Indies. Ithaca: Cornell University Press, 1982; Price, Richard. First-Time. The historical vision of an Afro- American people. Baltimore: The Johns Hopkins University Press, 1983; Dubois, Laurent. Avengers of the New World. The story of the Haitian revolution. Cambridge, MA: Belknap Press, 2004.)

يرى المؤرخون عادةً أن التفسير الشائع لهذا اللغز يركز على التحوّل الذي طرأ في التشريعات البرتغالية المتعلقة بالعبودية، فبعد أحداث بالمريس، شهد دور صياد العبيد المعروف بـ(الكابتو – دو-ماتو، المسؤول عن ملاحقة الأسرى الفارين في مناطق مختلفة من

أمريكا البرتغالية) عملية تقنين وتخصيص تدريجية، إلى جانب إعادة تعريف قانونية لمفهوم المارون، ويشير هذا الطرح إلى تقنين دور صياد العبيد والاعتراف بأي مجموعة صغيرة من العبيد الهاربين كمستوطنة مارون (بغض النظر عن عديدهم) قد ساهم في خلق نظام قانوني قمعي يمنع ظهور مجتمعات ضخمة مشابهة للمماريس قبل أن ترسخ أو تتوسع. (Arquivo Histórico Ultramarino, Documentos referentes ao tráfico de escravos para o Brasil (séculos XVII–XIX), Lisboa, várias datas).

يرى الباحث أن هناك احتمالاً لوجود تفسيرات أخرى مكملّة، دون المساس بصحة الأطروحات التي تناولها الباحثين، تتعلق بالتفسيرات بالبنية التي تطور بها نظام الرق في البرازيل منذ أواخر القرن السابع عشر، وهدفي من البحث هو محاولة فهم السبب وراء عدم ظهور كويلومبو بالمماريس جديد في التاريخ البرازيلي. (Keila Grinberg, 2001, p. 73.) للوصول إلى هذا الهدف، اخترت تسليط الضوء على العلاقة بين عناصر عديدة: تجارة العبيد عبر الأطلسي، أنماط تحرير العبيد (المانوميشن)، وتوفير الفرص للمقاومة الجماعية (سواء من خلال تشكيل تجمعات المارون أو إشال الثورات الكبرى)، وذلك خلال المدة من أواخر القرن السابع عشر وحتى منتصف القرن التاسع عشر. (Hebe Mattos, 1985, p. 132).

الفكرة تكمن في أن أحداثاً مثل بالمماريس وحرب المارون في جامايكا وحملة ساراماكا في سورينام، ارتبطت جميعها بنمط محدد من أنظمة الرق الذي يمكن وصفه بـ(نظام الرق القائم على اقتصاد المزارع)، إذ يتميز هذا النظام بتركيز الإنتاج الزراعي على محول زراعي واحد وبيئة اجتماعية غير متوازنة من حيث التركيبة الديموغرافية بين البيض الأحرار والعبيد السود، ومعظمهم من أصول إفريقية، فضلاً عن ندرة فرص التحرر وارتفاع معدلات غياب ملاك الأراضي عن مزارعهم. (Eduardo França Paiva, 1992, p.p. 65-61.)

كان نظام الرق السائد في المستعمرات البريطانية والفرنسية في جزر الكاريبي خلال القرن الثامن عشر يتميز بخصائص محددة لم تتحقق بالكامل في أمريكا البرتغالية إلا بشكل جزئي خلال النصف الأول من القرن السابع عشر، ومع مرور الوقت، شهد ذلك النظام تراجعاً تدريجياً على مدار القرنين التاليين في تاريخ البرازيل، وقد لعب ظهور نشاط التعدين دوراً محورياً في تسريع التغييرات في نظام الرق في البرازيل، إذ توسعت المؤسسة العبودية وأصبحت

أكثر انتشاراً وتكاملاً ضمن النسيج الاجتماعي، ما أفرز بنية اجتماعية معقدة على هرمية إثنية وثقافية واضحة.. (Keila Grinberg, Op. Cit, p. 78)

تأثرت بتلك التحولات أيضاً المناطق الزراعية التقليدية مثل زونادا في بيرنامبوكو والريكونكافو في باهيا، وعلى الرغم من استمرار اعتماد تلك المناطق على إنتاج السكر الذي بقي مرتبطاً بشكل كبير بالعمل العبودي، ومع نهاية القرن السابع عشر بات النظام القائم يعتمد بصورة متزايدة على الموازنة بين تجارة الرقيق عبر الأطلسي وتثبيت معدلات العتق، وهي معادلة سمحت باستيراد المزيد من العبيد الأفارقة دون تهديد البنية الاجتماعية القائمة أو استقرار النظام. (Manolo Florentino, , 1991, p.p. 33- 35)

إثر القضاء على ثورة بالماريس: تراجعت بشكل كبير فرص نجاح ثورات عبيد جديدة أو إنشاء تجمعات مارونية واسعة في البرازيل، ومن اللافت أن السلطات البرتغالية ثم الإمبراطورية البرازيلية أتبعَت سياسة صارمة رفضت فيها التفاوض مع العبيد الثائرين أو تجمعات المارون الكبيرة، باستثناء حادثة قصيرة خلال ثورة بالماريس في سبعينيات القرن السابع عشر، تلك السياسة انعكست مباشرة على الهيكل السائد في العلاقات الاجتماعية والقوى السياسية آنذاك. (Ibid, p. 37.)

تركّز الفكرة الأساسية حول ارتباط أحداث مثل بالماريس وحرب المارون في جامايكا وحملة ساراماكا بنوع معين من أنظمة الرق في نظام الزراعة الواسعة، إذ يعتمد ذلك النظام على إنتاج محصول زراعي واحد، ويرتكز تنظيمه الاجتماعي على اختلال ديموغرافي بين البيض على إنتاج محصول زراعي واحد، ويرتكز تنظيمه الاجتماعي على اختلال ديموغرافي بين البيض الأحرار والعبيد السود ذوي الأصول الإفريقية، مع قلة فرص العتق وزيادة غياب الملاك عن مزارعهم بشكل ملحوظ. (Roquinaldo Ferreira, , 2003, p. 136.)

تجلّلت سمات هذا النوع من الرق بشكل كبير في مستعمرات الكاريبي البريطانية والفرنسية خلال القرن الثامن عشر، بينما لم تكن ملامحه مكتملة في أمريكا البرتغالية خلال النصف الأول من القرن السابع عشر، ومع ذلك أخذ النظام بالتراجع تدريجياً خلال القرنين الثامن والتاسع عشر في البرازيل، ومع انطلاق نشاطات التعدين، شهد نظام الرق تحولاً في طبيعته الأساسية، حيث أصبح أكثر انتشاراً على المستويين الاجتماعي والجغرافي، واتسم بتعقيدات إضافية ما بين الهويات الإثنية والثقافية، حتى المناطق الزراعية القديمة مثل

"زونا دا ماتا" في بيرنامبوكو "والريغونكافو" في باهيا لم تكن بمنأى عن تلك التحولات على الرغم من استمرار اعتمادها على العمل القسري في إنتاج السكر (Jaime Rodrigues, 1994, p.p. 71- 75)

اعتمد نظام الرقّ في البرازيل مع أواخر القرن السابع عشر على توازن دقيق بين تجارة العبيد عبر الأطلسي واسعة النطاق وثبات نسبي في عديد حالات العتق، مما سمح بزيادة استيراد الأفارقة المستعبدين دون تهديد الاستقرار الاجتماعي القائم، وبعد سقوط بالمريس، تقلصت فرص نجاح أي تمرّد عبودي أو تشكيل جماعات مارون جديدة في البرازيل، وتجدر الإشارة إلى أن السلطات الاستعمارية البرتغالية، ومن بعدها ممثلو الإمبراطورية البرازيلية، تمسكوا برفضهم التفاوض مع العبيد الثائرين أو مع جماعات المارون الكبرى، باستثناء فترة وجيزة خلال حرب بالمريس في سبعينيات القرن السابع عشر، وكانت تلك السياسة تعكس بشكل واضح موازين القوى التي حكمت تلك الحقبة (Arquivo Nacional, Registros de entrada de africanos – Porto do Rio de Janeiro (1811–1831), Rio de Janeiro, diversas páginas.)

تُبرز العلاقات بين السيّد والعبد تناقضاً جلياً مقارنة بالنهج الذي تبناه البريطانيون والهولنديون، الذين كان عليهم الاعتراف بانتصارات مجتمعات المارون والساراماكا في ميدان المعركة عبر معاهدات السلام التي أبرمت معهم.

ومن الجدير بالذكر أن المؤرخين توصلوا منذ ما لا يقل عن ثلاثة عقود، إلى فهم العلاقة الوثيقة بين شدة الاتجار الأطلسي بالعبيد والزيادة الملحوظة في معدلات العتق في تاريخ البرازيل، ومع ذلك، فإن ما يبدو مفقوداً هو تطوير إطار نظري أكثر ترابطاً يُفسّر هذه العلاقة ويضعها في سياق محدوديّة إمكانيات نجاح المقاومة الجماعية للعبيد في البرازيل.

المطلب الثاني: العبودية في نظام المزارع

العبودية في نظام المزارع لم تختفِ تماماً من أوروبا الغربية والمتوسطية بعد سقوط الإمبراطورية الرومانية، لكنها كنظام عمل، تراجعت تدريجياً خلال العصور الوسطى المبكرة، باستثناء مناطق محددة مثل شبة الجزيرة الايبيرية والإيطالية، حتى في تلك المناطق، كانت العبودية ذات طابع حضري، حيث اختفى تقريباً استخدام العمالة المستعبدة على نطاق

واسع في الإنتاج الزراعي. (Arquivo Público da Bahia, Documentos sobre a Revolta dos Malês (1835), Salvador, várias datas.)

ومع ذلك، فقد تجددت ممارسات العبودية الزراعية خلال النصف الثاني من القرن الخامس عشر مع إدخال البرتغاليين والإسبان للعمالة المستعبدة إلى مزارع السكر في الجزر الأطلسية مثل الكناري وماديرا وساو تومي، ومع بداية الاستعمار الأوروبي للقارة الأمريكية في القرن السادس عشر، توسع هذا النظام ليستوعب أعداداً كبيرة من العمالة المستعبدة. (Anais do Parlamento Brasileiro, debates sobre revoltas escravas (1823–1840), Tipografia Nacional, Rio de Janeiro).

استفاد البرتغاليون من الخبرات المكتسبة في زراعة السكر بماديرا وساو تومي، فبدأ التاج البرتغالي منذ عام 1530 بدعم إنشاء مزارع السكر في البرازيل، وعلى الرغم من تعثر المستعمرين في البداية بمشكلات متعددة مثل نقص العمالة، وعدم توافر رؤوس الأموال الكافية لبناء الطواحين على السواحل، إلا أنهم تمكنوا تدريجياً من التغلب على تلك الصعوبات، وحصل ذلك عبر ربط الإنتاج البرازيلي بأسواق أوروبا الشمالية وتطوير شبكة منتظمة لتجارة العبيد بين أفريقيا والبرازيل. (IHGB, Coleção de Documentos sobre o Quilombo dos Palmares, Rio de Janeiro, século XIX).

ساهمت تلك التطورات في انطلاق صناعة السكر القائمة على العبودية في البرازيل بشكل نهائي خلال الأعوام (1580-1620)، وفي تلك المدة، تفوق نمو الإنتاج البرازيلي على كل مناطق العالم الأخرى المصدّرة للسكر إلى أوروبا.

يجدر التوقف قليلاً عند الدور الذي لعبته تجارة العبيد الأطلسية في ازدهار إنتاج السكر البرازيلي، إذ اعتمدت الطواحين البرازيلية في بداياتها بشكل أساسي على العمالة من السكان الأصليين، حيث كان بعض أولئك العمال (الذين جلبوا من القرى اليسوعية الساحلية) يتقاضون أجوراً محدودة، بينما خضع الغالبية العظمى لنظام العبودية، ومع حلول العام 1550، تم جلب العبيد الأفارقة لأول مرة، لكن دورهم كان يتركز في الأعمال المتخصصة داخل الطواحين، ما جعل تكلفتهم أعلى بالمقارنة مع العمال الأصليين، في تلك الفترة كان سعر العبد الأفريقي يُعادل ثلاثة أضعاف سعر العبد الهندي. Livro de Notas de Alforria – Rio de Janeiro (1800–1888), Arquivo Nacional, Rio de Janeiro

ضربت الأوبئة كالحصبة والجذري الساحل البرازيلي، مما أدى إلى ارتفاع معدلات الوفاة بين السكان الأصليين، مما خلقت حاجة لتعويض النقص في العمالة، وتحت ضغط اليسوعيين فرض التاج البرتغالي مع بداية القرن السادس عشر، قيوداً جزئية على استرقاق السكان الأصليين، بالتزامن مع تعزيز البرتغال تجارتها للعبيد، لا سيما بعد احتلال أنغولا أواخر القرن السادس عشر، وتظهر الأرقام حجم التجارة في تلك الفترة، ففي الأعوام ما بين 1576 و 1600، وصل نحو 40 ألف عبد أفريقي إلى موانئ البرازيل، بينما ارتفع العدد خلال الأعوام (1601- 1625) إلى أكثر من ثلاثة أضعاف العدد، إذ تم جلب حوالي 150 ألف عبد إلى أمريكا البرتغالية، كان معظمهم يعمل في مزارع قصب السكر والطواحين. Registros de Batismo e Alforria – Bahia (1780–1880), Arquivo Público da Bahia.

سرعان ما أدرك الغزاة مدى الترابط الجغرافي والاقتصادي العميق بين القارة الأفريقية ومزارع السكر في الأمريكيتين، إذ كانت الأراضي البرازيلية التي سيطروا عليها قليلة القيمة دون التحكم الكامل بنقاط التموين الأفريقية، وبناءً على ذلك، بدأت شركة الهند الغربية في عام 1638 حملة بقيادة ماوريسيو دي ناسو على ميناء ساو جورجي دا مينا البرتغالي، وأعقب ذلك احتلال أنغولا عام 1641. Coleção de Leis do Império do Brasil. (1822–1889), Imprensa Nacional, Rio de Janeiro.

لم يستمر الحكم الهولندي على برنامبوكو طويلاً، إذ تمكن المستوطنون اللوسو-برازيل في عام 1645 من قيادة تمرد انتهى بطرد الهولنديين بشكل نهائي من أمريكا البرتغالية عام 1654، كما أعلن المستوطنون عام 1648 في ريو دي جانيرو مسؤوليتهم المباشرة عن إنهاء الوجود الهولندي في أنغولا، ومع فشل المشاريع الهولندية في كامل البرازيل وأنغولا، تخلت شركة الهند الغربية الهولندية عن إنتاج السكر، متجهة نحو استيراده من المناطق التي لم تكن خاضعة لسيطرتها المباشرة، ولتحقيق ذلك الهدف، ركّز التجّار الهولنديون جهودهم على دعم وتعزيز إنتاج السكر في مناطق الكاريبي البريطانية والفرنسية. Código Criminal do Império do Brasil (1830), Tipografia Nacional, Rio de Janeiro

خلال الاحتلال الهولندي للبرازيل في عام 1645، قام التجار الهولنديون بنقل خبرات معامل تصنيع السكر البرازيلية إلى المستعمرين البريطانيين في بربادوس، ومع الفرنسيين في كل من مارتينيك وغوادلوب، كما زودت هذه المجموعات بالعبيد من خلال مراكز شركة

الهند الغربية الهولندية الواقعة على خليج غينيا، وشهد إنتاج السكر في الجزر البريطانية والفرنسية منذ عام 1660 طفرة ملحوظة ، إذ اعتمد بشكل رئيس على العمالة المستعبدة، وبدأ التجار الأوروبيون في تلك المرحلة بالمشاركة المباشرة في تجارة الرقيق عبر الأطلسي، ومع دخول القرن الثامن عشر، طرأت تغييرات جذرية على المشهد الجغرافي والديموغرافي في منطقة الكاريبي، إذ تحولت معظم الجزر إلى مزارع ضخمة لقصب السكر، فيما أصبحت الغالبية الكبرى من السكان من الأفارقة، غالبيتهم أُسروا وقُيدوا كعبيد. Lei de 13 de Maio

de 1888 (Lei Áurea), documento original, Arquivo Nacional, Rio de Janeiro.

شهدت معامل السكر البرازيلية تراجعاً ملحوظاً في إمدادات العبيد، فقد استقبلت المستعمرات البرتغالية في أمريكا نحو 150 ألف إفريقي مستعبد خلال الأعوام (1601-1625)، إلا أن هذا العدد انخفض بشكل كبير ليصل إلى حوالي خمسين ألفاً فقط خلال (1719-1725) بسبب الحروب التي خاضها الهولنديون في جنوب الأطلسي في بيرنامبوكو ومع المستوطنين اللوسو- برازيليين، ظهرت فرصة واسعة للمقاومة بين صفوف العبيد الذين تم نقلهم بأعداد كبيرة خلال العقود الأولى من القرن السابع عشر، ولا يمكن تجاهل الدور الثقافي الذي لعبته المجموعات القادمة من وسط وجنوب أفريقيا في تشكيل سياسة مملكة بالماريس النيوإفريقية، وتجدر الإشارة إلى أن تلك المناطق كانت من بين الأكثر نشاطاً لتجار الرقيق البرتغاليين منذ نهاية القرن السادس عشر Autos de processos criminais envolvendo escravos, Arquivo da Justiça do Rio de Janeiro.

يمكن فهم حجم وقوة بالماريس ليس فقط في سياق النزاع الإمبراطوري بين البرتغال وهولندا، بل إلى التركيبة السكانية لمنطقة بيرنامبوكو، إذ تركزت مزارع السكر بشكل كبير، وعلى الرغم من صعوبة تقديم أحكام نهائية بشأن تركيبة السكان قبل القرن الثامن عشر، لكن يمكن التأكيد بأن العبيد الأفارقة كانوا يشكلون الغالبية، متفوقين على السكان البيض وحتى السكان الأصليين، وقت الغزو الهولندي لبيرنامبوكو.

وجهت قوات اللوسو-برازيلية جهودها العسكرية لمواصلة القتال ضد سكان بالماريس بعد أن أخرجت الهولنديين من المنطقة، ومع ذلك، كانت المشكلة الأساسية التي واجهها المستوطنون هي مشكلة اقتصادية، فقد أدى النمو السريع لصناعة السكر المعتمدة على العبودية في جزر الأنتيل، بدءاً من عام 1650، إلى توجيه ضربة قاسية لصناعة السكر

البرتغالية- الأمريكية. (Registros de irmandades negras (Irmandade do Rosário), Salvador e Rio de Janeiro, séculos XVIII—XIX.

ركزت واحدة من أهم الدراسات المبكرة بشأن هذا الموضوع على ولاية باهيا المجاورة لبرينامبوكو، مركز صناعة السكر، وشملت المدة الأعوام (1684-1745)، إذ قام الباحث ستيوارت شوارتز بتحليل وثائق عديدة تتعلق بالعتق، وأكتشف نمطاً متكرراً يشير إلى أن عديد النساء اللواتي حصلن على حرياتهن كان ضعف الرجال المعتقين، وبالنظر إلى هيمنة الرجال رقمياً في تجارة العبيد عبر المحيط الأطلسي وفي التوزيع العام للعبيد، يؤكد شوارتز أن نسبة النساء اللواتي تلقين العتق كان أعلى بكثير مما تشير إليه التقديرات الإحصائية. (Ibid, p. 45).

يرى شوارتز أن تفضيل عتق النساء العبيد في سن الإنجاب قد أدى إلى إضعاف الإمكانات الديموغرافية للتكاثر الطبيعي بين فئة العبيد في البرازيل، هذا الأمر عزز اعتماد النظام الاستعماري القائم على العبودية على تجارة الرقيق عبر الأطلسي لتعويض النقص في العمالة بالمستعمرات. (R. Boxer, Op. Cit, p. 61).

المطلب الثالث: التعدين وأثره على العبودية:

مع اكتشاف الذهب في أواخر القرن السابع عشر وبداية القرن الثامن عشر، ترسخت هذه الديناميكية السكانية واتسعت جغرافياً، والإغراء الناتج عن الوعد بالثراء السريع كان له تأثير عميق على السكان في المستعمرة والبرتغال، مما دفع نحو اندفاع جماعي نحو مناطق التعدين، ووفقاً لبعض الدراسات التي أعتبرت الزواج هو أول هجرة جماعية في التاريخ الديموغرافي البرازيلي (Flávio dos Santos Gomes, , 1997, p.p. 66- 71)

إلى جانب الهجرة الداخلية، استقطبت المناجم عدداً ضخماً من المهاجرين البرتغاليين، يُقدّر بحوالي 400 ألف شخص خلال القرن الثامن عشر، ومع ذلك، فقد كانت هناك موجة أخرى أكبر طابعها قسري، حيث تضاعفت تجارة الرقيق عبر الأطلسي إلى المستعمرات البرتغالية الأمريكية، لتصبح الأكبر على الإطلاق في العالم الجديد ما بين الأعوام (1701-1720) نُقل إلى البرازيل حوالي 292 ألف مستعبد أفريقي، معظمهم للعمل في مناجم الذهب، أما الأعوام (1720-1741) فقد ازداد العدد إلى 312.4 ألفاً ليصل عديد العبيد الذين تم نقلهم بين

(الأعوام (1741- 1760) إلى 354 ألفاً، *Registros de produção agrícola escravista (café, açúcar)* – Arquivo Nacional, Rio de Janeiro).

يركز البحث على نوع آخر من الصراعات الاجتماعية، وهو هروب العبيد وتأسيس مستوطنات الكيلومبو ووضع خطط لانتفاضات واسعة النطاق بين العبيد، وتشير العديد من الدراسات إلى ظروف العمل في التعدين وفرت للعبيد مستوى معيناً من الاستقلالية والمقاومة ضد هيمنة أسيادهم، إذ كانت المناجم موزعة بشكل واسع وبعض العمال يحصلون على نصيب من الأرباح ويتمتعون بمزيج من السيطرة الذاتية والخبرة المهنية مثل مهارات التعدين لدى العبيد القادمين من ساحل مينا.

قلل هذا الواقع الحاجة إلى استخدام القمع لضمان الإنتاجية، لذا تمكن العديد من العبيد من توفير المال لشراء حريتهم، ومع أن تلك الفرص دفعت البعض إلى الاستسلام للواقع القائم، إلا أنها أيضاً أعطتهم مساحة أكبر لتنظيم المقاومة، وكان هنالك العديد من مستوطنات الكيلومبو في مينا س جيرايس لها روابط اقتصادية قوية بالمجتمعات المحيطة.

يرى البعض أن النمو الكبير في نشاط الكيلومبو ربما كان رداً غير مقصود على الحملات القمعية التي شنتها السلطات للقضاء عليها، فقد أدى المفهوم المقيد الذي اعتبر مستوطنة الكيلومبو مجرد تجمع يتألف من خمسة عبيد هاربين أو أكثر يعيشون على أرض خالية إلى تسليط الضوء على هذه الظاهرة سواء للمراقبين المعاصرين أو الباحثين لاحقاً (Décio Freitas, 1961, p. 152).

وبغض النظر عن التفسير اذي يُقدم في هذا السياق، فإن الأمر المؤكد هو وجود مستوطنات كيلومبو كبيرة في تلك المنطقة كانت تضم حوالي ألف شخص، بالإضافة إلى عدد كبير من المستوطنات الصغيرة، ومن بين تلك المستوطنات تبرز كيلومبو أمبروزيو التي تعرضت للهزيمة عام 1746 وكيلومبو غراندي التي سقطت في عام 1759، كما تم تسجيل ثلاث محاولات رئيسة لانتفاضات العبيد في الأعوام 1711 و1719 و1756، إلا أن جميعها أُحبطت قبل أن تندلع.

نطرح في هذا البحث تساؤلاً مهماً وهو: لماذا لم تشهد مينا س جيرايس حدثاً شبيهاً بـ بالماريس، على الرغم من الوضع الاجتماعي الملتب وتفوق عدد العبيد بشكل واضح على حساب السكان البيض؟ ويصبح هذا التساؤل أكثر إلحاحاً عندما نتذكر شبح بالماريس كان

يلاحق سلطات ميناس طوال النصف الأول من القرن الثامن عشر، ومن أبرز التحديات تلك التي أطلقها كونت أوسومار إلى الملك البرتغالي جواو الخامس عام 1718، إذ قال مانصه: "إن بقاء الأمة أو فنائها قد يعتمد على قمع تجمعات الكيلومبو (Kátia M. de Queirós , 1974, p.p. 83-89.) مشيراً إلى ميل الزواج في هذا الإقليم إلى تكرار نموذج بالمريس في بيرنامبوكو.

للإجابة عن السؤال يعود إلى الصرامة القانونية التي كرّست رسمياً وظيفه صائد العبيد، مما منع ظهور تجارب مقاومة مشابهة لبالمريس في البرازيل البرتغالية، إلا أن هناك مؤرخين قدموا قراءة بديلة للأحداث، فمثلاً، يرى دونالد راموس أن انتشار المستوطنات الصغيرة التي أسسها العبيد الفارون في منطقة ميناس جيريس أسهم فعلياً في تقليل القدرة العامة على تنظيم مقاومة موحدة ضد نظام الرق، وتدل التجارة التي أقامتها هذه المجموعات الصغيرة مع محيطها المجتمعي على أنها لعبت دور (صمامات تنفيس لمنع الانفجار)، أكثر من كونها نقاط تحوّل جذرية للنظام العبودي، وما يثير الاهتمام في تحليل راموس، هو ملاحظته أن منح الحرية الفردية للعبيد بصورة واسعة ساهم بدوره في ترسيخ بنية المجتمع القائم على العبودية، مما جعل مقاومته أكثر تشتتاً وأقل تأثيراً.

هناك نقطتان بارزتان تمثلان خصوصية تجربة التعدين في سياق أمريكا البرتغالية: أولاً، عديد العبيد الذين حصلوا على حريتهم كان أكبر خلال فترة ازدهار التعدين (1750) مقارنة بفترة الانحسار، وثانياً، انتشار، بشكل واسع. (ممارسة الكوارتياساو الكوارتياساو (Coartação): هي ممارسة قانونية-اجتماعية شاعت في المجتمع البرازيلي خلال فترة العبودية، تقوم على تمكين العبد من شراء حريته تدريجياً، عبر دفع مبلغ متفق عليه للمالكه على شكل أقساط، بدل دفعه دفعة واحدة، بحيث تُستكمل الحرية الكاملة بعد سداد المبلغ كاملاً. للمزيد ينظر في: (SCHWARTZ, Stuart B, 2001, p. 112.)

بغض النظر عما قيل حول ظاهرة العتق، يشير راسل وود إلى أن جميع الدراسات المتعلقة بمناطق التعدين في القرن الثامن عشر تتفق حول نقاط رئيسة، إذ كانت أكثر النساء تفضيلاً على الرجال، وذوو البشرة الملونة أكثر تفضيلاً على السود، كما أن المولّدون في البرازيل كانوا أكثر تفضيلاً بالمقارنة مع الأفارقة، وعبيد المدن نالوا الأفضلية على عبيد

الريف، بالإضافة إلى ذلك، فضّل العديد من مالكي العبيد تحرير الأطفال الرضّع بدلاً من البالغين.

اتبع نظام تحرير العبيد (المانوميساو) في ولاية ميناس جيرائس نمطاً مشابهاً لذلك الذي وثّقه شوارتز في باهيا نهاية القرن السابع عشر، إذ كان النظام يركز على قاعدة أساسية واضحة هي كلما ابتعد العبد زمنياً عن فترة تجارة الرقيق عبر الأطلسي، زادت احتمالية حصوله على الحرية، أما الرجال الأفارقة الذين مثلوا الأغلبية في سفن العبيد، فكان نيلهم للتعق أمراً نادراً، غير أن أحفادهم بعد جيل أو جيلين غالباً ما تمكنوا من نيل الحرية.. (Robert W., 1976, p. 163)

المطلب الثالث: سياسة النظام في البرازيل تجاه العبودية

تميزت أمريكا البرتغالية في أواخر القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر بتكوين ديموغرافي فريد من نوعه مقارنة بالمستعمرات الأخرى في العالم الجديد، ولمعرفه هذه الخصوصية لابد من إلقاء نظرة على المستعمرات الأوروبية الأخرى خلال تلك المدة، فعلى مدار القرن الثامن عشر، شكلت الجزر المنتجة للسكر في البحر الكاريبي البريطاني والفرنسي نموذجاً واضحاً للاختلال الكبير بين عديد الأحرار والعبيد السود، فبغض النظر عن بعض الفروقات بينهما، فقد كانت أعداد العبيد تفوق أعداد الأحرار بنسبة كبيرة، فعلى سبيل المثال لا الحصر، كانت جزيرة بربادوس تضم ما يقارب أربعة عبيد سود مقابل رجل أبيض واحد، أما في سان دومينغ (هايتي) وصلت نسبة العبيد إلى خمسة عشر مقابل رجل أبيض واحد، في حين كان عديد السود والمولّدون الأحرار أقل بكثير من العبيد، فلم يتجاوز عديد الأحرار في تلك المستعمرة عن 30 ألف شخص وهو رقم يعادل تقريباً عديد السكان البيض، أما في جامايكا، فقد أشارت الأرقام إلى نسب أقل مقارنة بمناطق أخرى. José do Patrocínio,

Campanha Abolicionista, Tipografia Nacional, Rio de Janeiro, 1780.

نشأ مجتمع عبودي يتألف من عرقين في القارة الجنوبية ولاحقاً في الولايات الجنوبية للجمهورية الأمريكية الشمالية، وعلى الرغم من أن نسبة السود والمولّدون الأحرار كانت أقل بكثير مقارنة بالمستعمرات البريطانية والفرنسية في الكاريبي، إلا أن هناك نوعاً من التوازن العددي بين السكان البيض والعبيد السود، أما في أمريكا الإسبانية فقد تميزت بتنوع ديموغرافي أوسع بين المستعمرين الأوروبيين، فهم مدعومين بشكل كبير من السكان

الأصليين، وبين العبيد الأفارقة وأحفادهم، كان تركيز السود في المدن وبعض المناطق المحدودة مثل كاراكاس وتشوكو وساحل ليما منخفضاً إلى درجة حالت دون وصف أمريكا الإسبانية بأنها مجتمع عبودي كامل الأركان (Arquivo Nacional, Registros da Polícia da

Corte sobre Escravos (1720–1780), Rio de Janeiro.

كانت أمريكا البرتغالية في المقابل تمثل مجتمعاً عبودياً متكاملًا، لكنه اختلف عن مستعرات بريطانيا وفرنسا الكاريبية، وعن الولايات الجنوبية للجمهورية الأمريكية، الفارق الأساس كان في وجود عدد كبير من السود والأفارقة المتحررين وذوي الأصول الإفريقية، الذين عاشوا جنباً إلى جنب مع مجتمع أبيض، بالإضافة إلى أغلبية واسعة من العبيد وهم في الغالب أفارقة، إلى جانب نسبة أقل من المولودين في أمريكا والملونين، ومع وجود تباين بين الولايات المختلفة، إذ احتفظ أقصى الشمال والجنوب بالطابع السكاني الهندي، ومع غياب الإحصاءات الديموغرافية الدقيقة، Joaquim Nabuco, O Abolicionismo, Leuzinger, Rio de Janeiro, 1783. يمكن تقدير التركيبة السكانية للبرازيل مطلع القرن التاسع عشر

تقريباً وفق الجدول التالي.

جدول رقم (1) النسب السكانية التقديرية للبرازيل عام 1800-1806 (الجدول من اعداد الباحث بالاعتماد على بيانات: Manifestos das Sociedades Abolicionistas, Rio de

Janeiro e São Paulo

SCHWARTZ & Chicago:, 1992, pp. 35–38).

ت	النوع	النسبة المئوية
1	البيض	28%
2	السود	27.8%
4	الملونين الأحرار	38.5%
5	العبيد السود والملونين	5.7%

يظهر في الجدول أعلاه أن الملونين الأحرار يشكلون الأكثرية البسيطة في المجتمع البرازيلي، وأن نسب السود والبيض تكاد تكون مقاربة إلى حد كبير وهذا يدل على أن المجتمع في طور التحرر من العبودية فضلاً عن التنوع الديموغرافي الذي يتميز به المجتمع.

قدّم لويز فيليبي دي الينكاسترو في هذا الإطار وصفاً بارعاً لهذه الظاهرة في خاتمه كتابه (صفقة الأحياء) حيث تناول ما أسماه " اختراع الملونين " وأوضح أن الملونين في أمريكا البرتغالية تمتعوا بامتيازات معينة، إذ فضّلوا للعمل في المهام الماهرة وأُدمجوا في الوحدات العسكرية، وكانوا أكثر الفئات المؤهلة للحصول على حرية العتق، كما قارن بين وضع هؤلاء في البرازيل وما كان عليه الحال في إفريقيا البرتغالية، حيث عومل الملونين كسائر الزنوج دون أي امتيازات اجتماعية تُذكر. (ALENCASTRO, , 2000, pp. 340–345)

تسلط التجربة البرازيلية الضوء على عملية فريدة من التحوّل تمثلت في مزج الأعراق كنتيجة ديموغرافية مباشرة لعلاقات السيطرة والاستغلال) وتحوّل ذلك إلى تعددية عرقية تعكس تعقيدات اجتماعية أدت إلى نشوء مجتمع متعدد الأعراق، وعلى الرغم من أن هذه العملية كانت ذات طابع طبقي صارم ومشحونة بالأيدولوجيات الحسية، فإن ذلك لم يُلغ أبعادها العنيفة التي كانت عنصراً أساسياً في البنية العامة للمجتمع البرازيلي، فالبرازيل شهدت بروز فئة الملونين كنتيجة للاستعمار القديم القائم على الاستغلال المنهجي للعبودية، وهو نمط من السيطرة لم يكن موجوداً بالطريقة نفسها في أنغولا. João José Reis, Slave

Resistance and Daily Life in Bahia, Tese, University of Minnesota, 1982.

الدليل الأبرز على نجاح هذه الآلية يتمثل في الطريقة التي تفاعل بها السود والأفراد الملونين الأحرار مع النظام العبودي، إذ كان الطموح الاقتصادي والاجتماعي لدى العديد منهم يتمثل في امتلاك العبيد، مما يعكس سعيهم للتحوّل إلى فئة مالكي العبيد، كما أظهرت دراسات حديثة اتساع انتشار ممارسة امتلاك العبيد بين السود والملونين الأحرار، بل وحتى بين العبيد أنفسهم، وفي ضوء استمرار تدفق العبيد إلى البرازيل على نطاق واسع (وهو ما يمثل أكبر حركة عبودية في تاريخ تجارة الرقيق عبر الأطلسي) بات العبد الأفريقي سلعة منخفضة التكلفة من منظور اجتماعي ، تلك الديناميكية ساهمت بشكل مباشر في انتشار العبودية عبر مختلف طبقات المجتمع البرازيلي وتحولها إلى نظام فريد من نوعه، كما لعبت تلك المنظومة دوراً محورياً في تشكيل الهيكل الاقتصادي الاستثنائي لأمريكا البرتغالية، حيث تضافرت العوامل الاجتماعية والاقتصادية لتأصيل العبودية كركيزة أساسية في البناء المجتمعي.

كان إنتاج التبغ في منطقة ركونكافو بولاية باهيا من الأنشطة الاقتصادية المزدهرة في ذلك الوقت، إذ أصبح التبغ مورداً أساسياً يُستخدم في مبادلة السلع التجارية للحصول على العبيد من ساحل مينا، لما كان يتمتع به هذا المنتج من قيمة عالية في مناطق التعدين، ومع ذلك بقيت مناطق زراعة قصب السكر مثل ركونكافو بولاية باهيا وزونا دا ماتا بمقاطعة بيرنامبوكو وحقول كامبوس دوس غويتاكازيس تحتفظ بدورها الحيوي طوال القرن الثامن عشر، على الرغم من المنافسة التي فرضتها منتجات الأنتيل والتي كانت تُقيّد دخولها الأسواق البريطانية والفرنسية—(1810) *Listas de Tripulações e Carga – Porto do Rio de Janeiro* (1831), Arquivo Nacional.

ضمن أطار التحليلات الاقتصادية والاجتماعية، يبرز أنّ جميع تلك الأنشطة (سواء الريفية أو الحضرية) كانت تعتمد بشكل كبير على نظام العمل القسري الذي تمثل في العبودية، إذ كان نمط ملكية العبيد موزعاً بين فئات مختلفة من المجتمع وتباين مستويات الثراء بينهم، حيث لم يقتصر استحواذ العبيد على النخبة البيضاء المالكة للأراضي فقط، وبذلك شكلت أمريكا البرتغالية أنموذجاً فريد يجمع بين التنوع الاقتصادي وأشكال مختلفة من استغلال العمالة المستعبدة، وهي سمات وجدت في مناطق أخرى من العلم الجديد بدءاً من التعدين والعبودية الحضرية كما هو الحال في أمريكا الإسبانية، وصولاً إلى مزارع العبيد في منطقة الكاريبي وإنتاج المواد الغذائية كما هو مشهود في منطقة تشيسابيك. *Autos de polícia sobre práticas religiosas africanas, Rio de Janeiro (1830–1880).*

يمكن التأكيد أن هذه البنية كانت موجودة أيضاً في أمريكا الإسبانية، إذ ظهرت هناك أشكال من العبودية الزراعية، ولاسيما في منطقة كاراكاس، غير أن هناك ثلاث اختلافات جوهرية بين التجريبتين لا يمكن إغفالها:

- 1- الأهمية الاقتصادية البارزة للسكان الأصليين في وسط أمريكا الإسبانية، مقارنة بالاعتماد الكبير على العبيد في أمريكا البرتغالية؛
- 2- افتقار المستعمرات الإسبانية إلى تكامل اقتصادي على عكس ما ساد في المستعمرة البرتغالية، حيث لعب التعدين دوراً محورياً في خلق شبكة تكامل اقتصادي تمتد

من ريو غراندي دو سول جنوباً إلى بيرنامبوكو شمالاً، باستثناء الفجوة الواسعة بين منطقة الأمازون وبقية أنحاء البرازيل؛

3- الدور الحاسم الذي اضطلعت به تجارة الرقيق عبر الأطلسي في تعزيز النمو الاقتصادي بأمريكا البرتغالية، على عكس المستعمرات الفرنسية والبريطانية التي كانت تجارة الرقيق فيها تتم بإدارة مباشرة من العاصمة الأم، أما في الحالة البرتغالية، إذ كان تنظيم تجارة الرقيق تتم محلياً من الموانئ البرازيلية، حيث كبار تجار الرقيق المسؤولين عن الإمدادات يتمركزون في مدن مثل ريسيفي وسالفادور وريو دي جانيرو بدلاً من لشبونة.

شهدت الفترة الممتدة من أواخر القرن الثامن عشر إلى بداية القرن التاسع عشر تحولاً بارزاً تمثل في تراجع قطاع التعدين لصالح توسع الزراعة التصديرية المعتمدة على نظام العمل القسري، ترافق هذا التحول مع ظهور مناطق جديدة مثل مارانهاو المتخصصة في زراعة القطن، وغرب ساو باؤل في إنتاج السكر، بالإضافة إلى تعافي المناطق الزراعية التقليدية في بيرنامبوكو وباهيا وريو دي جانيرو، ومع ذلك فإن التغير لم يسفر عن تبدل جذري في البنية الاجتماعية والاقتصادية للعبودية البرازيلية التي استقرت معالمها في القرن السابق، بل على العكس، فقد كانت هذه البنية هي ما مكّن الطبقة المالكة للعبيد من الاستجابة بسرعة إلى التحولات العالمية المواتية آنذاك. (João Fragoso, , UFRJ, 1987, p. 148).

وقد أدّت تلك الحروب إلى تدفق مستمر من الأسرى الذين أرسل عدد كبير منهم إلى أسواق العبيد في باهيا لتعزيز اليد العاملة المطلوبة لصناعاتها الزراعية المتنامية. تشكلت الجماعات التي أخذت قسراً من ساحل المينا، وبينهم مجموعات من أعراق ناغو والهوسا وجيجي وتابا، لتصبح القوة الحاسمة وراء أخطر موجة من انتفاضات العبيد الأفارقة في تاريخ البرازيل، وعرفت البلاد مقاومة منظمة بهذا المستوى فقط خلال حرب بالمريس، ولم تتكرر تجربة تضاهيها إلا مع الحركة الإبطالية في ثمانينيات القرن التاسع عشر، فمنذ عام 1807 وحتى 1835، عاش إقليم باهيا فترة متواصلة من التمردات التي قادها العبيد الأفارقة، وتوجت بانتفاضة بالمريس التي اعتبرت بأنها واحدة من أخطر الانتفاضات الحضرية للعبيد في تاريخ القارة الأمريكية (Tâmis Parron, 2009, p.p. 23- 27).

ما الذي حدث لهذه الحركة المقاومة؟ بخلاف الانتفاضات المماثلة التي شهدتها جزر الهند الغربية التابعة للإمبراطورية البريطانية، لم تترك سلسلة التمردات التي وقعت في باهيا بين الأعوام 1807 و1835 تأثيراً تراكمياً يهدد النظام العبودي في البرازيل، وعند النظر إلى السياق الأطلسي الأوسع، يمكننا أن ندرك مدى محدودية تأثير هذه الانتفاضات. فبينما كانت ثورات بربادوس عام 1816 وديميرارا عام 1823 وجامايكا عام 1831 دفعةً كبيرة نحو الحملة المناهضة للعبودية في الإمبراطورية البريطانية، فإن مقاومة العبيد في باهيا لم تشكل رابطاً ذا أثر يُذكر على مدى العقود التالية، وصولاً إلى إلغاء الرق في البرازيل في ثمانينيات القرن التاسع عشر. باختصار، وعلى الرغم من قوتها وعنفها، فشلت هذه الانتفاضات في زعزعة أركان النظام العبودي البرازيلي. يمكن تفسير هذا الإخفاق من خلال الشرخ الكبير الذي فصل العبيد الأفارقة عن أحفادهم من السود والمولدين المولودين في البرازيل. هذه الفئة الأخيرة لم تشارك في الثورات التي قادتها الجالية الأفريقية في باهيا، بل على العكس تماماً، وكما يوضح المؤرخ جواو جوزيه ريش: "لقد كان المولدين والقبراس والكريول يشكلون القوة الأساسية التي تم الاعتماد عليها لضبط وقمع الأفارقة. وكان هؤلاء هم من يتولون تنفيذ المهام القاسية نيابة عن البيض، مثل فرض النظام في الأماكن العامة والشوارع، تدمير المزارع الدينية النائية، مطاردة العبيد الفارين في أنحاء المقاطعة، وقمع أي تمرد يظهر بين العبيد." (Maria Helena Machado, , 1994, p. 159)

كان الولاء لمؤسسة الرق من قبل الكريول والمولدين (خاصة أولئك الأحرار أو الذين أُعتقوا) عاملاً جوهرياً لا يقل أهمية عن التزام السادة البيض، وهو ما ساهم بشكل كبير في استمرارية النظام العبودي البرازيلي وصموده أمام التحديات.

الأيديولوجيا والدولة القومية:

إن البنية الهيكلية للنظام العبودي في البرازيل قدّمت حماية قوية للحفاظ على هذا النظام، مما لم يقتصر على منع ظهور حركة ثورية مثل بالمريس مجدداً، بل حال دون اندلاع ثورة شاملة للعبيد على غرار ما حدث في سان دومينغ، وبينما أصبحت البرازيل دولة قومية في القرن التاسع عشر، كان للنظام الاجتماعي المرتكز إلى العبودية، الذي امتاز بدرجة كبيرة من الثبات، دور جوهري في تعزيز تجارة الرقيق عبر الأطلسي بشكل غير مسبوق، بالرغم من أن

هذه التجارة كانت قد أُعتبرت غير قانونية منذ عام 1831. كما شهدت تلك الفترة انتشاراً واسعاً للعبودية داخل حدود البرازيل نفسها (Mary Karasch, 1972, p. 52). مع مطلع القرن التاسع عشر، بدأت هذه التصورات تتبدّل تدريجيّاً نتيجة للملاحظات التي خطّها الرحالة الأوروبيون الذين زاروا البرازيل أو أقاموا فيها. على سبيل المثال، لاحظ البريطاني هنري كوستر (الذي كان نفسه مالكاً للعبيد في ولاية بيرنامبوكو خلال العقد الثاني من القرن التاسع عشر) أن العبيد المولودين داخل المستعمرة كانوا أكثر قدرة على نيل حريتهم بالمقارنة مع ما يُواجهه العبيد في جزر الكاريبي البريطانية من صعوبات، هذه الشهادات الأوروبية لعبت دوراً في خلق تصوّر يعكس أنّ العبودية البرازيلية، وربما الإيبيرية بشكل أعمّ، كانت أكثر "لطفاً" وأقلّ وحشية مقارنةً بنظيرتها الأنغلوسكسونية. (Eduardo Silva, 1984, p. 121)

بادرت النخب التي أسست الدولة القومية في البرازيل إلى توظيف هذا الخطاب بشكل سريع وفعال، إذ إن الفكرة التي تشير إلى أن العبيد المُحررين وأحفادهم كانوا حلفاء للملكي العبيد البرازيليين بدلاً من كونهم أعداء لهم، برزت بوضوح في عام 1822 خلال المناقشات التي انعقدت في محكمة لشبونة بهدف حسم مسألة استقلال البرازيل، وفي تلك الجلسات، وأثناء النقاش مع البرلمانيين البرتغاليين حول معايير المواطنة والمشاركة السياسية التي يمكن إقرارها ضمن الدستور المستقبلي، قدّم نائب ريو دي جانيرو، كوستوديو غونسالفيس ليدو، موقفاً واضحاً حين بيّن أنه لا يوجد أي مبرر لحرمان المُعتّقين من حقهم في التصويت. وأكد أن أعداداً كبيرة من المُعتّقين يعيشون في البرازيل، وهم يسهمون بشكل فاعل في خدمة المجتمع ويشغلون مواقع مهمة في القطاع الصناعي. وأضاف أن الكثير منهم لديهم عائلات، ولهذا فإن حرمانهم من هذا الحق يُعدّ ظلماً كبيراً، بل قد يُنظر إليه على أنه تفاقم للشور المرتبطة بالعبودية. (Ángela Alonso 2000, p. 95).

هذا المنظور المتقدم لتعريف المواطنة، الذي تبناه كوستوديو غونسالفيس ليدو في سياق جدالاته مع البرلمان البرتغالي، انعكس في نصوص دستور إمبراطورية البرازيل لعام 1824 وبحسب المادة السادسة الفقرة الأولى من هذا الدستور، تم اعتبار المُعتّقين المولودين في البرازيل مواطنين برازيليين، إلا أن هذا الاعتراف لم يمتد ليشمل الأفارقة المُعتّقين، إذ ظلّوا مستثنين من الانتماء إلى الكيان الاجتماعي للأمة. ومع ذلك، مكّن هذا النص الدستوري

المعتقين المولودين في البرازيل من التمتع بحق التصويت، حيث كانت المواد من 90 إلى 95 تنص على أن العبيد السابقين المولودين في البرازيل والذين يمتلكون دخلاً صافياً يبلغ مئة ألف ريس سنوياً مؤهلون للتصويت في الانتخابات الأولية لاختيار أعضاء الكليات الانتخابية الإقليمية، لكن هذا الحق لم يمتد ليشمل الترشح للمناصب، أما فئة الإنهينوس، وهم أبناء وبنات المعتقين سواء كانوا أفارقة أو برازيليين، فقد مُنحوا الحق في التصويت والقدرة على الترشح للانتخابات الإقليمية شرط استيفاء الشروط المالية المحددة (Sidney Chalhouh, 1986, p. 75).

بذلك، شكّل هذا النظام تعريفاً شاملاً للمواطنة مقارنة بذلك الزمن، وقد استُغلّ هذا النص الدستوري لاحقاً كأداة دعائية تدعم استمرار تجارة الرقيق، وذلك لمواجهة الضغوط المتزايدة من قبل بريطانيا لوضع حد لهذه التجارة. ففي عام 1838، دافع جوزيه كارنيرو دا سيلفا، الذي أصبح لاحقاً فيكونت ألاروما وأبرز سياسي التيار المحافظ، عن إلغاء قانون عام 1831 وتقنين تجارة الرقيق. استند دا سيلفا إلى التجارب التاريخية المتعلقة بنظام العبودية البرازيلية ليعزز أطروحته، حيث أشار إلى أنه كان شاهداً على عبيد أصبحوا أنفسهم مالكين لعبيد آخرين، كما رأى بعضهم يتحولون إلى ملاك أراضي شاسعة وماشية وخيول، وآخرين ينالون حريتهم ويصبحون جنوداً وضباطاً يتمتعون بمناصب مرموقة ذات أثر إيجابي للدولة. (Ricardo Salles 1996, p.p. 31- 33).

الخاتمة:

يُظهر هذا البحث أن العبودية في البرازيل لم تكن مجرد نظام اقتصادي قائم على استغلال العمل القسري، بل شكّلت بنية اجتماعية وثقافية عميقة الأثر امتدت قرونًا طويلة. فقد تداخلت آليات القمع مع أشكال متعددة من المقاومة، ما أسهم في إضعاف النظام العبودي وتهيئة الظروف لظهور مسارات التحرر التدريجي. كما يتضح أن عملية التحرر لم تكن حدثاً مفاجئاً، بل نتيجة تفاعل معقد بين نضالات العبيد، والتحوللات الاقتصادية، والتغيرات الفكرية والتشريعية في القرن التاسع عشر. وتؤكد الدراسة أن فهم تجربة العبودية والتحرر في البرازيل يظل أساسياً لاستيعاب جذور التفاوتات الاجتماعية والعرقية المعاصرة، وإدراك خصوصية المسار التاريخي البرازيلي ضمن العالم الأطلسي.

قائمة المصادر:

- 1- ALENCASTRO, Luiz Felipe de. O Trato dos Viventes: Formação do Brasil no Atlântico Sul, Séculos XVI e XVII. São Paulo: Companhia das Letras, 2000.
- 2- Anais do Parlamento Brasileiro, debates sobre revoltas escravas (1823—1840), Tipografia Nacional, Rio de Janeiro.
- 3- Ângela Alonso, A Política Abolicionista, Tese, USP, 2000.
- 4- Arquivo Histórico Ultramarino, Documentos referentes ao tráfico de escravos para o Brasil (séculos XVII—XIX), Lisboa, várias datas.
- 5- Arquivo Nacional, Inventários e testamentos de senhores e escravos (1750—1888).
- 6- Arquivo Nacional, Registros da Polícia da Corte sobre Escravos (1720—1780), Rio de Janeiro.
- 7- Arquivo Nacional, Registros de entrada de africanos — Porto do Rio de Janeiro (1811—1831), Rio de Janeiro, diversas páginas.
- 8- Arquivo Público da Bahia, Documentos sobre a Revolta dos Malês (1835), Salvador, várias datas.
- 9- Autos de polícia sobre práticas religiosas africanas, Rio de Janeiro (1830—1880).
- 10- Autos de processos criminais envolvendo escravos, Arquivo da Justiça do Rio de Janeiro.
- 11- C. R. Boxer, The Portuguese Seaborne Empire, 1415—1825, Penguin Books, London, 1969.
- 12- Código Criminal do Império do Brasil (1830), Tipografia Nacional, Rio de Janeiro.
- 13- Coleção das Leis do Império, leis de 1831 e 1871 (Lei do Ventre Livre), Imprensa Nacional, Rio de Janeiro.

- 14- Coleção de Leis do Império do Brasil (1822–1889), Imprensa Nacional, Rio de Janeiro.
- 15- Coleção de Leis do Império do Brasil, Imprensa Nacional, Rio de Janeiro, 1826–1850 (leis sobre o tráfico), várias páginas.
- 16- Craton, Michael. Testing the chains. Resistance to slavery in the British West Indies. Ithaca: Cornell University Press, 1982; Price, Richard. First-Time. The historical vision of an Afro- American people. Baltimore: The Johns Hopkins University Press, 1983; Dubois, Laurent. Avengers of the New World. The story of the Haitian revolution. Cambridge, MA: Belknap Press, 2004.
- 17- Décio Freitas, O Quilombo de Palmares, Dissertação, Universidade Federal do Rio Grande do Sul, 1961.
- 18- Décio Freitas' Palmares, a guerra dos escravos. Rio de Janeiro: Graal, 1990 (1st ed. 1971) and República de Palmares. Pesquisa e comentários em documentos históricos do século XVII. Maceió: Editora da Ufal, 2004.
- 19- Eduardo França Paiva, Alforrias e Sociedade no Brasil Colonial, Tese de Doutorado, UFMG, Belo Horizonte, 1992.
- 20- Eduardo Silva, Irmandades Negras e Sociabilidade Escrava, Dissertação, USP, 1984.
- 21- Flávio dos Santos Gomes, Mocambos e Quilombos no Rio de Janeiro Oitocentista, Tese de Doutorado, Unicamp, 1997.
- 22- Hebe Mattos, Escravidão e Liberdade nas Minas Gerais, Dissertação de Mestrado, UFF, 1985.
- 23- IHGB, Coleção de Documentos sobre o Quilombo dos Palmares, Rio de Janeiro, século XIX.

- 24- Jaime Rodrigues, De Costa a Costa: Escravos, Marinheiros e Intermediários do Tráfico Atlântico, Dissertação de Mestrado, Unicamp, 1994.
- 25- Jean Delumeau & Frank Lestringant (dir.), Histoire du Brésil, Paris, PUF, 2000.
- 26- João Fragoso, Mercadores e Escravos no Rio de Janeiro, Tese, UFRJ, 1987, p. 148.
- 27- João José Reis, A Greve Negra de 1857 na Bahia, Dissertação de Mestrado, UFBA, Salvador, 1978.
- 28- João José Reis, Slave Resistance and Daily Life in Bahia, Tese, University of Minnesota, 1982.
- 29- Joaquim Nabuco, O Abolicionismo, Leuzinger, Rio de Janeiro, 1783.
- 30- José do Patrocínio, Campanha Abolicionista, Tipografia Nacional, Rio de Janeiro, 1780.
- 31- Kátia M. de Queirós Mattoso, A Escravidão na Bahia no Século XIX, Tese de Doutorado, Sorbonne, 1974.
- 32- Keila Grinberg, A Construção da Liberdade no Brasil Imperial, Tese de Doutorado, UFF, Niterói, 2001.
- 33- Lei de 13 de Maio de 1888 (Lei Áurea), documento original, Arquivo Nacional, Rio de Janeiro.
- 34- Liana Maria P. Reis, Religiões Africanas na Bahia do Século XIX, Dissertação, UFBA, 1999.
- 35- Listas de Tripulações e Carga — Porto do Rio de Janeiro (1810–1831), Arquivo Nacional.
- 36- Livro de Notas de Alforria — Rio de Janeiro (1800–1888), Arquivo Nacional, Rio de Janeiro.

- 37- Manolo Florentino, O Tráfico Atlântico e a Economia do Rio de Janeiro (Séculos XVIII—XIX), Tese de Doutorado, UFF, Niterói, 1991.
- 38- Mapas populacionais por cor e condição jurídica (séculos XVIII—XIX) — Arquivo Público de diversos estados.
- 39- Maria Helena Machado, A Construção Jurídica da Liberdade (1865—1888), Tese de Doutorado, USP, 1994.
- 40- Maria Helena Machado, O Processo da Abolição no Brasil, Tese, USP, 1994.
- 41- Mary Karasch, A Vida dos Escravos no Rio de Janeiro, Tese de Doutorado, Stanford University, 1972.
- 42- Patterson, Orlando. "Slavery and slave revolts: a socio-historical analysis of the First Maroon War, 1655-1740". Social and Economic Studies, vol. 19, nº 3, set. 1970;
- 43- Paul E. Lovejoy, Transformations in Slavery: A History of Slavery in Africa, 3rd ed., Cambridge University Press, Cambridge, 2011.
- 44- Registros de Batismo e Alforria — Bahia (1780—1880), Arquivo Público da Bahia.
- 45- Registros de irmandades negras (Irmandade do Rosário), Salvador e Rio de Janeiro, séculos XVIII—XIX.
- 46- Registros de produção agrícola escravista (café, açúcar) — Arquivo Nacional, Rio de Janeiro.
- 47- Ricardo Salles, Escravidão e Capitalismo no Vale do Paraíba, Tese, UFF, 1996.
- 48- Robert W. Slenes, Senhores e Subalternos, Tese, Stanford University, 1976.

- 49- Roquinaldo Ferreira, Tráfico, Ilícitos e Redes Atlânticas, Tese de Doutorado, Johns Hopkins University, 2003.
- 50- SCHWARTZ, Stuart B. Escravos, Roceiros e Rebeldes. São Paulo: Companhia das Letras, 2001.
- 51- SCHWARTZ, Stuart B. Slaves, Peasants, and Rebels: Reconsidering Brazilian Slavery. Urbana & Chicago: University of Illinois Press, 1992.
- 52- Sidney Chalhoub, A Força da Escravidão e o Estado Imperial, Tese, Unicamp, 1986.
- 53- Tâmis Parron, A Política da Escravidão no Brasil Imperial (1826–1871), Tese de Doutorado, USP, São Paulo, 2009.
- 54- Usman dan Fodio, Murray Last, The Sokoto Caliphate, Longman, London, 1967.